Theories and criticism in Arabic literature
The Third year, Number ١١, Autumn ١٤٠٢
Pp: ١٠١- ١١٦

Research Paper

DOI: ١٠,٢٢٠٣٤/ JRAL٢٠٢٦,٥٧٣٧٤٤,١١٠١

The Role of Iranians in Arabic Prose of the Second Century AH

Morteza Gadimi[١]

(Received: ٢٠٢٦,٠٢,٠٣ ,Accepted: ٢٠٢٦,٠٢,٢١)

Abstract

Iranians have long played a prominent role in the growth and development of the Arabic language in general and its literature in particular. Among the manifestations of this role are the efforts and achievements of Iranian writers in the second century AH, such as Abdul Hamid Kateb and Abdullah ibn Muqfa, in the emergence and growth of Arabic prose. This article is an attempt, albeit insignificant, to highlight these valuable efforts and achievements. The research at hand shows that the Iranian writers of this period, led by Abdul Hamid Kateb and Abdullah ibn Muqfa, freed the Arabic language from the limitations of rhyme and assonance and transformed it into a flexible language that was able to accept and digest the Iranian culture that was widely translated into it, in addition to Greek and Syriac sciences. With the efforts of these writers, the beautiful meanings of the city, which were imbued with Iranian color and flavor, replaced the heavy, alien, and repetitive meanings of the desert. The Arabic language was no longer just a means of understanding Arab tribes or expressing religious and scientific concepts, but it became an embodiment of art and high emotions. Profundity and detail replaced brevity in prose, and sentences took on a harmonious and regular rhythm. The flow of words was like a wave rising from a calm sea, changing, and a balanced structure emerged that was far from brevity and detail. Thus, the first school of detailed Arabic prose emerged, of which Abd al-Hamid and Ibn al-Muqaffa were among its pioneers. Iranian writers introduced new themes and meanings into the Arabic language. The mursal style in Arabic prose is one of the achievements of Iranians in Arabic prose in the second century. Ibn al-Muqaffa is considered the greatest Iranian writer to have stepped into this field, because he succeeded in establishing this prose style in Arabic literature.

Keywords: Arabic prose, technical prose, Abd al-Hamid al-Kateb, Abdullah ibn al-Muqaffa, the role of Iranians in Arabic prose.

---

١. Assistant Professor Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities, Kosar University of Bojnord, Bojnord, Iran, Email: mor.ghadimi@gmail.com

© The Author. Publisher: Kosar University

التنظيرات و النقد في الأدب العربي

السنة الثالثة، العدد ١١، خريف ١٤٠٢

صص: ١١٦-١٠١

DOI: ١٠,٢٢٠٣٤/ JRAL٢٠٢٦,٥٧٣٧٤٤,١١٠١

إسهامات الإيرانيين في النثر العربي للقرن الثاني

مرتضى قديمي [١]

(تاريخ الوصول: ١٤٠٤/١١/١٤ ، تاريخ القبول:١٤٠٤/١٢/٠٣)

الملخص

لطالما لعب الإيرانيون دورا بارزا في نمو اللغة العربية و تطورها عموما، و آدابها خصوصا و من مظاهر هذا الدور الجهود و الإنجازات التي بذلها أدباء إيرانيون في القرن الثاني الهجري، مثل عبد الحميد الكاتب و عبد الله بن المقفع، في نشأة النثر العربي و تطوره و ما بين أيديكم هو محاولة بسيطة لإبراز هذه الجهود و الإنجازات القيمة. يُظهر البحث هذا أن الكتّاب الإيرانيين في هذه الفترة، بقيادة عبد الحميد الكاتب و عبد الله بن المقفع، حرّروا اللغة العربية من قيود القافية و السجع، فأصبحت العربية لغة مرنة نابضة بالحياة، قادرة على استيعاب الثقافة الإيرانية التي كانت تُترجم إليها بغزارة، و استيعاب العلوم اليونانية و السريانية. فحلّت المعاني الحيوية للمدينة، المفعمة بالنكهة الإيرانية، محلّ المعاني الثقيلة و الغريبة و المتكررة للصحراء. لم تعد اللغة العربية مجرد وسيلة لفهم القبائل العربية أو التعبير عن المفاهيم الدينية و العلمية، بل أصبحت هي نفسها تجسيدا للفن و المشاعر النبيلة. حلّ التفصيل و الإطناب فى النثر محلّ الإيجاز، و اكتسبت الجمل تناغما و إيقاعا منتظما، و تفاوتت جمل الكلام كموجة تصعد من بحر هادئ، و برزت بنية معتدلة بعيدة عن الإيجاز و الإطناب. فنشأت أول مدرسة للنثر العربي المفصّل، و كان عبد الحميد و ابن المقفع من روادها. إستخدم الكتّاب الإيرانيون اللغة العربية في الكتابة عن مواضيع جديدة، مما أدّى إلى إدخال معان و أفكار جديدة فيها. أسلوب المرسل في النثر العربي أحد إنجازات الإيرانيين في النثر العربي خلال القرن الثاني. و يُعدّ ابن المقفع أعظم كاتب إيراني خاض غمار هذا المجال، إذ استطاع أن يُرسّخ هذا النمط من النثر في الأدب العربي.

الكلمات المفتاحية: النثر العربي، النثر الفني، عبدالحميد الكاتب، عبدالله بن المقفع، إسهامات الإيرانيين في النثر العربي.

. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية، جامعة كوثر بجنورد، بجنورد، إيران، البريد الإلكتروني: morteza.ghadimi@kub.ac.ir

© **حق مولف نويسنده** **ناشر:** دانشگاه كوثر

مقدمة

التبادل الأدبي بين اللغتين الفارسية و العربية من أهمّ المواضيع في مجال الدراسات الأدبية. و قد أسهم هذا التبادل الأدبي بين اللغتين في تطورهما، و جعلهما لغتين ثريتين مؤثرتين في الثقافة العالمية. و لا تقتصر العلاقات بين الإيرانيين و العرب، و التبادلات الثقافية بينهما، على ظهور الإسلام، بل تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام و قبل التاريخ المكتوب، أي إلى العصور الأسطورية التي ازدهرت في العصر الأخميني، و ترسّخت في العصر الساساني. و قد كانت العلاقات و التبادلات السياسية و الثقافية بين العرب و الإيرانيين قوية و واسعة النطاق في مختلف المجالات، و لم يشهد التاريخ البشري مثيلاً لهذا التبادل و التواصل بين اللغتين و هاتين الثقافتين المختلفتين على الرغم من أنه لا توجد، من حيث الجذور، أي قرابة أو تشابه بين العربية و الفارسية، لأن اللغة الفارسية فرع من اللغات الهندو–أوروبية، بينما العربية فرع من عائلة اللغات السامية.

هذا، فقد أدى ظهور الإسلام وتأثيره التدريجي في إيران إلى توطيد الروابط الثقافية بين الإيرانيين والعرب إلى مستوى لا مثيل له بين جميع اللغات الحية في العالم، وقلّما نجد لغات من عائلات لغوية مختلفة قد تأثرت ببعضها البعض إلى هذا الحد، بحيث يمكن القول دون أدنى شك إن اللغة الفارسية هي اللغة الأهم التي كان لها أكبر الأثر على اللغة العربية، واللغة العربية هي اللغة الأهم التي أثرت في اللغة الفارسية من جميع الجوانب. وقد كُتب الكثير في الأوساط الأدبية عن تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية، وأُجريت العديد من الأبحاث والكتب والمقالات في هذا المجال، إلا أن التأثيرات العميقة والجوهرية التي تركها الإيرانيون على اللغة العربية وآدابها، وخاصة النثر العربي، لم تحظَ بالقدر الكافي من البحث والدراسة. نعم، لقد ترك مفكرون مثل الدكتور محمد محمدي والدكتور آذرتاش آذرنوش وغيرهما أعمالاً قيّمة عن التأثير العام للغة والثقافة الفارسية على اللغة العربية، ولكن على الرغم من وجود بعض الأعمال، لا يزال هناك مجال للنقاش والدراسة فيما يتعلق بتأثير الكتاب الإيرانيين في النثر العربي.

النثر العربي قبل القرن الثاني الهجري

قبل أن نخوض في عالم النثر العربي الواسع، من المناسب أن نقدم تعريفا موجزا عن النثر ونوضح الرؤية التي سيتناولها هذا البحث في دراسته.

تعريف النثر وأنواعه

النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان و قواف، و هو على ضربين: أما الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، و ليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال و حكم، أما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن و مهارة و بلاغة، و هذا الضرب هو الذي يُعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه و درسه و بيان ما مرّ به من أحداث و أطوار، و ما يميز به في كل طور من صفات و خصائص، و هو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة و الكتابة الفنية ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني. (شوقي ضيف، ١٩٧٧م: ١٥).

لقد استقطب النثر الفني اهتمام النقاد والباحثين، ودفعهم إلى مناقشة خصائصه المتنوعة ودراستها عبر العصور. تتناول هذه الدراسة هذا النوع من النثر، وتحديدًا النثر الفني العربي، وتدرسه لتقييم دور الإيرانيين في نشأته و تطوره وتقديم صورة واضحة عنه.

ظهور النثر الفني العربي

أبدى الكتّاب والنقاد آراءً متباينة في وقت ظهور النثر الفني العربي: فبينما يرى بعضهم أنه ظهر قبيل الإسلام، ثم تطور تدريجيًا حتى أسسه عبد الحميد الكاتب وابن المقفع على أسس متينة، يرى آخرون أنه لم يُعرف إلا بهما و في عهدهما. يقول طه حسين في كتابه **من حديث الشعر و النثر**: و الواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال – مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي و عشاقه _ أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني، و مع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل إلينا لضعف الذاكرة، و خلوه من الوزن. و الذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن"(طه حسين، ٢٠١٢م: ٢٦).

هذا، ومع نزول القرآن وبعد الفتوحات التي أعقبت ظهور الإسلام، اتسع نطاق النثر العربي، واتجه إلى حد ما نحو الفنون التعبيرية. ومنذ ذلك الحين، أصبح النثر العربي، بطابعه المتنوع وعباراته الموجزة وأساليبه البسيطة، مصحوبًا بالشرح والتفسير. ولذلك، عُرف النثر المذكور آنفًا، والذي كان شديد الشبه بالنثر القديم، بالنثر الموجز.

أنواع النثر الموجز

ظهر النثر الموجز بعد الإسلام بثلاثة أنواع رئيسية: الخطابة، والتوقيعات، والرسائل.

١. الخطابة

مع ظهور الإسلام وتوسع رقعة العالم العربي، برزت دوافع عديدة للخطابة، كالدعوة إلى الدين الجديد، وحثّ الناس على الجهاد في سبيل الله، وشرح الاسلام، وغيرها. لاحقًا و في العصر الأموي، أُضيفت دوافع أخرى، كالمنافرات، والمفاخرات، والمناقشات القبلية والحزبية، إلى ما سبق، مما زاد من أهمية الخطابة. كان تأثير الخطابة على الناس بالغًا، ما دفع العديد من الخطباء البارعين إلى اللجوء إلى هذا النمط من النثر الموجز. ونتيجة لذلك، ازدهر هذا الفن النثري، وتعمقت ثروته الفكرية، واتسع نطاقه الجغرافي. نعم، إن الأثر العظيم للخطابة على الناس هو ما أدى تدريجيًا إلى ظهور خطباء عظام مثل الإمام علي (ع)، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وغيرهم. وقد وجد هؤلاء العظماء أفضل السبل لتحفيز مشاعر الناس والتأثير فيها، وبالتالي تحقيق أهدافهم المشروعة أو غير المشروعة أحيانًا من خلال الخطابة.

كانت الخطابة في ذلك العصر ذات طابع ديني في الغالب، وتُقدم على شكل مواعظ. وقد سعى الخطباء إلى استخدام الوعود والتهديدات في خطبهم. وكانت هذه الخطب في البداية بسيطة وخالية من الأساليب البلاغية والتعبيرية، وتُقدَّم بإيجاز شديد إلا أنه شيئا فشيئا، ظهرت فيها عناصر موسيقية وبلاغية حتى زُيّنت في العصر الأموي بصور بلاغية متنوعة كالتركيب والتشبيه والتقسيم والاستعارة. مع ذلك، وحتى أواخر العصر الأموي تقريبًا، لم تتجاوز الخطابة في معظم الأحيان دائرة الإيجاز، ولم تتجه نحو الإسهاب والتفصيل إلا لاحقًا. و فرق بعيد بين خطب هذا العصر و خطب الجاهلية فالأخيرة جمل و صيغ لا رابط بينها تأخذ في الغالب شكل حكم متنثرة يسردها الخطيب سردا أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة غاية دينية واضحة تسمو بالعربي في مراقي الفلاح الروحي، و قد تخوض في تنظيمات حربية أو إجتماعية. و كل ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه و أنها رقيت رقيّا بعيدا. (شوقي ضيف، ١٩٧٧م: ٦٣).

٢. التوقيعات

التوقيعات عبارات قصيرة وموجزة كان يكتبها الخليفة أو الوالي أو الوزير أو غيرهم من ذوي النفوذ في أسفل الرسائل أو الطلبات أو الشكاوى الموجهة إليهم. هذا النوع من النثر، الذي يُشبه إلى حد كبير الأحرف الأولى الشائعة اليوم، ظهر في مطلع الإسلام وازدهر في العصر الأموي. يُعد هذا النوع من النثر، الذي عادةً ما يتضمن نقاطا دقيقة ومعاني خفية، ويُعبَّر عنه بكلمات وتراكيب قصيرة وجميلة، نمطًا آخر من أنماط النثر في الفترة التي ندرسها.

٣. الرسائل

بعد ظهور الإسلام وانتشاره التدريجي من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد بعيدة، ولأسباب سياسية وأمنية ودينية وغيرها، شاع استخدام الرسائل بشكل خاص، إذ كان الحكام بحاجة إلى تواصل دائم مع ولاتهم ورعاياهم في مختلف الولايات لتنفيذ أوامرهم، ولم يكن هناك وسيلة أخرى لتحقيق هذا التواصل المستمر سوى الرسائل. وقد دفعت أهمية الرسائل، وما قد تحمله من تفسيرات مختلفة أحيانًا، الحكام إلى دراستها بعناية فائقة، مما أدى إلى تطور هذا النوع من الكتابة كما ونوعا.

ومما ساهم أيضا في انتشار الرسائل على نطاق أوسع، أن بعض الخطباء كانوا هم أنفسهم من يكتبون الرسائل. إن كتابة الرسائل في هذه الفترة، مثل الخطابة، على الرغم من أنها تطورت تدريجياً وخضعت للعديد من التغييرات مقارنة بالعصر ما قبل الإسلامي، إلا أن سمتها المميزة لم تكن سوى الإيجاز، إلى أن أصبحت تدريجياً مفصلة ومطولة، وأخيراً، في أواخر العصر الأموي، بمشاركة الإيرانيين، جمعت كل عناصر أسلوب الكتابة الحقيقي.

دور الإيرانيين في النثر العربي

كما مرّ، لم يستطع النثر العربي في الجاهلية، ثم في بدايات الإسلام، رغم ما شهده من تطور، أن يخرج من مساره الطبيعي الذي اقتصر على البساطة والعبارات القصيرة المتفرقة، إلا في نهاية العصر الأموي. وابتداء من القرن الثاني، وبفضل دور الإيرانيين الذين جمعوا بين ثقافات متعددة، شهد النثر العربي تحولات جوهرية، ليصبح مختلفا عما كان عليه قبل ذلك. من أهم إنجازات الإيرانيين في القرنين الثاني في مجال النثر العربي ما يلي:

١. ابداع النثر الفني

قبل عبد الحميد الكاتب و ابن المقفع ،كان النثر العربي قائما على الإيجاز والاختصار. وكان الهدف من البلاغة والخطابة في النثر هو تكثيف الكلمات والعبارات، وإبراز المعاني الواضحة من خلال هذه العبارات القصيرة الموجزة. في ذلك الوقت، لم تكن الحياة واسعة ومعقدة، ولم تكن الديوانات الشعرية قد نُظمت بعد، وكانت تصرفات الدول محدودة، ولم تكن أنشطتها في شؤون البلاد قد تفرعت بعد إلى فروع تُتيح لها الاهتمام الكافي بالحياة وأسلوب الكتابة. إضافة إلى ذلك، لم يكن هناك اختلاط كبير بين المجتمع العربي والأجانب لكي يؤدي إلى تأثير قوي وعميق للعوامل الأجنبية على العرب.

أما في عهد عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، فانقلبت الأوضاع وتغيرت الأشكال وتطورت. في ذلك الوقت، بُني عالمٌ جديد، وبرزت عوامل مؤثرة من مختلف المناطق. أتقن الأعاجم اللغة العربية فكتبوا ديواناتهم وكتبهم بها، ونشروا أسلوب كتابتهم بين العرب. في ذلك الوقت، اتخذ أسلوب الكتابة طابعا من الإطالة والتمطيط، واتخذ شكلا أرستقراطيا فارسيا. وحلّ التفصيل والإطناب محلّ الإيجاز، واكتسبت الجمل تناغما وإيقاعا

منتظما، وتفاوتت جمل الكلام كموجةٍ تصعد من بحر هادئ، وبرزت بنيةٌ معتدلةٌ بعيدةٌ عن الإيجاز والإطناب. وهكذا، نشأت أول مدرسة للنثر العربي المفصّل، وكان عبد الحميد وابن المقفع من روادها.

منذ أن حرّر عبد الحميد وابن المقفع اللغة العربية من قيود القافية والسجع، أصبحت العربية لغةً مرنةً نابضةً بالحياة، قادرةً على استيعاب الثقافة الإيرانية التي كانت تُترجم إليها بغزارة، و استيعاب العلوم اليونانية والسريانية. فحلّت المعاني الحيوية للمدينة، المفعمة بالنكهة الإيرانية، محلّ المعاني الثقيلة والغريبة والمتكررة للصحراء. لم تعد اللغة العربية مجرد وسيلة لفهم القبائل العربية أو التعبير عن المفاهيم الدينية والعلمية، بل أصبحت هي نفسها تجسيدا للفن والمشاعر النبيلة. (آذرنوش، ١٣٩٩ش: ١٤٧).

يُعتبر عبد الحميد أول أستاذ بارز في كتابة الرسائل، فهو أول من وضع قواعدها الصحيحة، وأزال الإيجاز، وجعل المديح شائعا في بداياتها. كان الكتاب قبل عبد الحميد يعتمدون فقط على قدراتهم الفطرية في الفصاحة و البلاغة، ولتحقيق أقصى استفادة منها، كانوا يكتفون بممارسة أساليب التعبير المعتادة. أما عبد الحميد، فقد وضع قواعد خاصة للكتابة، وابتكر أساليب جديدة، وفتح آفاقا جديدة، ومنذ ذلك الحين، استحسن الكتاب هذه الأساليب والمبادئ القيّمة، واتخذوها نموذجا يحتذى به، وسارعوا إلى اتباعها لتحسين أعمالهم. وقد بلغت مكانة عبد الحميد في الكتابة حدا جعل النقاد ينسبون إليه بداية الكتابة العربية، كما نسبوا نهايتها إلى كاتب إيراني آخر هو ابن العميد: «بدئت الكتابة بعبدالحميد و ختمت بابن العميد». (الأندلسي، ٢٠٠٩م: ٢٠٦).

وقد تطور المسار الذي سلكه عبد الحميد في كتابة الرسائل وتوسع بعده في العصر العباسي، وبرز كتّاب عظام، غالبيتهم من أصول إيرانية. وشكّل كتّاب الديوانات في ذلك العصر، الذين كانوا يُختارون عادةً من بين الإيرانيين، طبقةً مميزة، واقتدوا جميعا بالمبادئ والقواعد الإيرانية. ذكر حسن بن سهل، وزير المأمون، وعبد الحميد الكاتب، شروط كتابة الديوان، واعتبروا أنه من الضروري لكل كاتب أن يتعلم التاريخ الإيراني وبعض المعلومات من الثقافة الإيرانية. فعلى سبيل المثال، اشترطوا على كاتب الديوان أن يحفظ نصائح كبار العلماء مثل بوزرجمهر وأردشير بابكان، وأقوال أنوشروان وشابور وأبرويز، والعلوم والمعلومات الإيرانية، وأن يستخدمها في كتابته.

يقول طه حسين، أعظم كاتب وناقد للغة العربية في عصرنا المعاصر، عن عبد الحميد الذي اعتبره معلما لابن مقفع: يمكننا اعتبار هذين الكاتبين رائدين في النثر الفني. لكن عبد الحميد لا تشوبه شائبة في كلامه، بل لا يُمكن إيجاد كاتب يُضاهيه في فصاحة الكلمات، وبلاغة المعاني، واتساق الأسلوب. لقد كتب العربية أفضل من أي كاتب آخر، وكان أكثر قدرة على استنباط المعاني المختلفة والتعبير عنها. يُمكن القول بأن عبد الحميد كان أستاذا لكل من كان ينشئ الرسائل، وبشكل خاص، أستاذا للجاحظ.

دخل النثر العربي بفضل ابن المقفع مجال الترجمة. كما تحرر النثر العربي من تعقيده وغموضه، وأصبح جاهزا للتناول في مواضيع متفرقة، فصارت اللغة العربية أفضل وسيلة للكتابة والتأليف. بعد عبد الحميد الكاتب، غيّر ابن المقفع مفهوم الفصاحة و البلاغة، و حوّله من الكتابة المختصرة والأسلوب المقتضب، ومنهج حذف العبارات، إلى أسلوب آخر يتميز بالإيجاز والدقة، قائم على ذكر الألفاظ على قدر المعاني، وحوّل الإشارات المستخدمة في الكتابة إلى تعبير واضح وعبارات دقيقة. ومن سمات النثر الذي ابتكره عبد الحميد الكاتب التناغم بين الكلمات والعبارات. فلم يستخدم عبد الحميد السجع في رسائله، بل اعتمد على نوع من الإيقاع الصوتي. ويبدو من رسائله أنه اعتمد على نوع من الترادف، مما أضفى على أسلوبه توازنا صوتيا. تتميز عبارات عبد الحميد بتوازنها الصوتي، فهو لا يعبر عن فكرته بعبارة واحدة، بل يترجمها إلى عبارات متعددة، مما يمنحه ثراءً في التراكيب اللفظية، فيُحقق توازنا صوتيا بديعا بين العبارات. لم يستخدم عبد الحميد السجع كخطباء عصره، بل كانت عباراته سلسة وعذبة، خالية من أي تكلف أو تصنّع. ومن سمات نثره أيضا استخدامه الكثير من الحال، إذ يتبين جليا عند قراءة رسائله وفرة هذا الأسلوب. لا

شك أن المبالغة في استخدام الحال في النثر العربي لم تكن شائعة قبل عبد الحميد، لكنه كان أول من جعل هذا الأسلوب شائعا وأدخله في أسلوب كتابة النثر العربي. كما أن تأثير كلمات عبد الحميد وعمقها سمة بارزة أخرى في أسلوبه، فعباراته تُعبّر بطلاقة فائقة تدفع القارئ إلى التأمل في

معاني الكلمات، تاركة أثرا عميقاً في نفسه. ورد أن أبا مسلم الخراساني أحرق الرسالة التي كتبها إليه عبد الحميد من قبل مروان، خوفا من أثرها عليه، وكتب البيت الشعري التالي على قطعة من الرسالة المحروقة وأرسلها إلى مروان:

محى السيف أسطار البلاغة و انتحى عليک ليوث الغاب من كل جانب

عبد الحميد هو أول من جعل الكتابة بمعناها الحقيقي شائعة في النثر العربي، لأنه قبله لم تكن الكتابة الحقيقية موجودة بين العرب، ولم تكن شائعة بينهم كما كانت عند الفرس والرومان. كما أن القرن الأول الهجري لم يكن مناسبًا لتطوير الكتابة العربية وتوسيع نطاقها. لذلك، لم يُعنى العرب اهتمامًا بالتأليف والتدوين في هذا القرن، وفي هذه الفترة وُضعت أسس العلوم التي توسعت فيما بعد وأصبحت تُعرف بالعلوم الإسلامية. إضافة إلى ذلك، روى المسلمون هذه العلوم، وكثيرا ما رووا قصائد شعراء الجاهلية والمسلمين، بينما قلّما كتبوا. لذا، لم يُسهم هذا الجزء من العصر الإسلامي إسهاما كبيرا في التدوين والكتابة، وفي هذا القرن، اعتُبر ديوان الخلافة المركز الوحيد للكتابة العربية، كما كان يُعتبر مركزا مهما للكتابة في جميع العصور الإسلامية. وكان ديوان الخلافة تحت إشراف الكُتّاب حتى اتسع نطاق النثر العربي تدريجيا، وتغلغل استخدامه في حياة العرب، ولم يحدث ذلك إلا بعد دخول الإيرانيين ديوان الخلافة. وكما هو معلوم، فإن التنظيم الإداري في حكومة الخلافة كان مُستمدا من تنظيمات الحكومة الساسانية، وكانت العادات السائدة في الديوانات هي نفسها العادات والتقاليد التي كانت مُتبعة في العصر الساساني. لهذا السبب، بعد دخولهم بلاط الخلافة، أدخل الإيرانيون العديد من عاداتهم إلى ديوان الخلافة، وغيروا أسلوب الكتابة الذي كان متسقا مع البداوة حتى ذلك الحين. من جهة أخرى، كان الإيرانيون أكثر قدرة على الكتابة من العرب. فكما ذكر أحمد أمين في كتابه **ضحى الإسلام**، كان العرب أكثر ميلًا إلى فصاحة اللسان منها إلى فصاحة الكتابة، ولعل هذا ما دفعهم إلى صياغة كلمة مشتقة من كلمة «لسان» للدلالة على الفصاحة، وأطلقوا على الرجل البليغ والمتحدث بطلاقة لقب «رجل لسن». كان هذا أحد أسباب اقتصار الكتابة في بدايات الإسلام على الإيرانيين. مما سبق، يتضح لنا أن الإيرانيين لعبوا دورا محوريا في تطور الكتابة العربية، وكان عبد الحميد أول من اضطلع بهذا الدور على أكمل وجه، وأبدع أسلوبا جديدا في الكتابة العربية و يتضح أيضا أنه لماذا نسب الثعالبي، في كتابه **يتيمة الدهر**، الكتابة العربية إلى عبد الحميد حيث يقول: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد». أو يقول ابن نديم: «عنه أخذ المترسلون، و لطريقته لزموا، و هو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل» (ابن نديم،: ١٧٠).

٢. إدخال معان وأفكار جديدة في النثر

استخدم الكتّاب الإيرانيون، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب وابن مقفع، اللغة العربية في الكتابة عن مواضيع جديدة، مما أدى إلى إدخال معان وأفكار جديدة في اللغة العربية. لم تقتصر حداثة كتاباتهم الرسمية في الشؤون السياسية والإدارية على اللغة العربية فحسب، بل شملت أيضا كتاباتهم في المواضيع الأدبية والأخلاقية، حيث استلهموا منها أعمالا مشابهة من الجاهلية وبدايات الإسلام. ومع ذلك، فقد كانت هذه الكتابات، من حيث المعاني والأفكار، جديدة وغير مسبوقة في نظر معاصريهم. وحتى اليوم، عندما ندرسها ونقارنها بأعمال معاصريهم، نجدها نتاج عقل أكثر انفتاحا، وفكر أكثر قدرة، وعقل أكثر خصوبة (محمدى، ١٣٧٤ش: ٣٣٥).

يمكن تفسير سبب الاختلاف المذكور على النحو التالي: لم تقتصر معرفة عبد الحميد وابن مقفع على ما عرفه معاصروهما العرب، بل تعاملا مع ثقافة أوسع، واستمدا أفكارهما من مصادر أخرى ثرية ومتنوعة. ومن المهم جدا أن عبد الحميد وابن مقفع وزملاءهما من محرري الديوان استقوا

المواضيع والأفكار التي عكسوها في مؤلفاتهم من أعمال إيرانية، ثم ترجموها إلى العربية، إذ إن العديد من مواضيع رسائلهم كانت تحاكي تلك الأعمال، كما أن بعضا من هؤلاء المحررين أنفسهم ترجموا نصوص تلك الأعمال الأصلية إلى العربية. على أي حال، يتضح مما ورد في الكتب الأدبية أن رسائل ابن مقفع، سواء أكانت مترجمة أم مؤلفة، كانت فريدة من نوعها في اللغة العربية من حيث الموضوع والمعنى (حديدي، ١٣٨٦ش: ٧٧).

يقول أبوالفضل أحمد بن طاهر، بخصوص حداثة المواضيع التي استخدمها ابن المقفع في مؤلفاته: الإجماع العام هو أنه لم يبلغ أحدٌ مستوى ابن المقفع، ولم يقل أحدٌ مثل هذه الأمور قبله. (ابن أبي طاهر: ٥ ١١) ولذلك، لا شك أن سبب شهرة رسائل ابن المقفع هو احتواؤها على مواضيع وقضايا بدت جديدة في البيئة العربية، وجديدة على العرب. فبكتابته هذه الرسائل، فتح ابن المقفع فصلاً جديداً في الأدب النثري العربي، ووظّف النثر العربي لأغراض شتى (حديدي، ١٣٨٦ش: ٧٧).

٣. إبداع النثر المرسل

يُعدّ أسلوب المرسل في النثر العربي أحد المجالات التي برز فيها الإيرانيون في النثر العربي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. يُعدّ ابن المقفع أعظم كاتب إيراني خاض غمار هذا المجال، إذ استطاع أن يُرسّخ هذا النمط من النثر في الأدب العربي. والأسلوب المرسل أو الحرّ في النثر العربي هو أسلوب يُوظّف فيه الكاتب الكلمات والعبارات وفقًا لمعانيها، مُعبّرًا عنها ببساطة وعفوية.

أخذ ابن المقفع أسلوبه في الكتابة من بلاغة العربية الأصلية وفصاحتها، ومزجها بالروح الإيرانية واليونانية والهندية، لينتج عنه شكلا جديدا يتألف من الإيجاز العربي، والإطناب الإيراني، والمنطق اليوناني، والحكمة الهندية. في أسلوب هذا المؤلف، تتكامل فصاحة البداوة التي استقاها من آل أهتم مع رقة اللغة الإيرانية ولطفها، والطابع العلمي للغة اليونانية، ونبل اللغة الهندية. ابن المقفع مفكر تتسم فنه الكتابي بالبساطة مقارنة بفكره. ففي كتاباته، الفكر هو المحرك للفن، لذا فهو لا يميل كثيرا إلى الفنون اللفظية، أو الترتيبات المبتكرة، أو الأساليب التعبيرية، ولا يستخدمها إلا عند الضرورة والملاءمة. يميل مؤلفنا إلى الجمال الروحي أكثر من الجمال اللفظي، لذا فهو لا يولي اهتماما كبيرا للتناغم والتوازن، كما فعل عبد الحميد بن يحيى. بالطبع، نجد في بعض كتاباته بعض التوازن والتباين. إنها ظاهرة للعيان، لكنها نادرة للغاية. يُعد أسلوب ابن المقفع في الكتابة، ببلاغته وسلاسة أسلوبه وجماله، رمزا للكتابة القديمة، وقد وُصف بأنه الأسلوب السهل والصعب في آن واحد، بمعنى أن تأليف أعمال مثل أعمال ابن المقفع يبدو سهلًا للوهلة الأولى، ولكنه مستحيل عمليا.

في مؤلفات ابن المقفع، سواء استقى مادته من الماضي أو المعاصرين أو اقتبسها من كتب بهلوية، لا يظهر جليا سوى فطنته القوية وأسلوبه الفريد. مع أن موضوع كتبه هو الوعظ والحكمة، وهذه المواضيع ليست بعيدة عن التشتت، فقد جمعها ابن المقفع، بمهارة خاصة، في نظام منهجي وتجنب تشتت المواد الذي يُلاحظ في مؤلفات عربية مماثلة. هذا الأسلوب الجديد في الكتابة الذي نراه في مؤلفات ابن المقفع ليس تقليدًا لمعاصريه، لأنه في عصره لم تكن هناك كتب أو رسائل بهذا الأسلوب، ولم تكن كتابة وتجميع مثل هذه المواد قد بلغت بعدُ مرحلة النضج. هذا المستوى من التماسك في اللغة العربية. لذلك، لا شك أن هذا الأسلوب هو نتاج ثقافة هذا المؤلف الواسعة ومعرفته بالأدباء البهلويين. مما سبق، يتضح أيضا مدى اعتماد تطور الكتابة والتدوين في الإسلام على الأعمال الأدبية الإيرانية (محمدي، ١٣٧٤ش: ٣٤٢).

أعظم الكتّاب الإيرانيين في النثر العربي

عبد الحميد الكاتب

وُلد أبو غالب عبد الحميد بن يحيى عام ٦٠ هـ في مدينة الأنبار على ضفاف نهر الفرات، ونشأ في بلاد الشام. كان عبدالحميد من أصول فارسية (الإصطخري، ١٨٨٩م: ١٤٥) تعلّم فن الكتابة من أخي زوجته البليغ، سالم مولى هشام بن عبد الملک و رئيس ديوانه و كان ينتقل أول أمره في البلدان معلما في الكتاتيب ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبدالملك. ثم اتصل عبدالحميد بمروان بن محمد و كتب له أيام كان واليا، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه فنهض بالعمل فيه خير نهوض. (شوقي ضيف، ١٩٧٧م: ١١٤) و لما دارت الدوائر على مروان و انتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب ظل مخلصا له وفيا، ففر معه إلى مصر حيث قتلا في موقعة بوصير (إبن خلكان، ١٢٧٥ق: ج١، ٤٣٥).

يرى مؤلف كتاب **العقد الفريد** أن عبد الحميد كان حلقة وصل بين اللغة العربية وآدابها في الجاهلية والإسلام، وبين اللغتين الفارسية والبهلوية من جهة أخرى. كما يعتبره من رواد الكتابة و يرى أنه بفضل براعته في نقل الكلمات الفارسية إلى العربية، لعب دورًا مميزًا في إحياء اللغة العربية. كان عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي و أشهرهم، و قد ضربت الأمثال ببلاغته، فقال الثعالبي: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد». و يقول ابن نديم: «عنه أخذ المترسلون، و لطريقته لزموا، و هو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل». (ابن نديم: ١٧٠) و يزعم المسعودي أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب. و الحق أنه القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي إذ كان زعيم البلغاء في عصره غير مدافع. و قد بقيت منثورات من رسائله تشهد بفصاحته و مقدرته على التعبير و البيان مع الفخامة و الطلاوة، من ذلك رسالة وجهها إلى عمال مروان بن محمد، و ثانية يصف فيها رحلة صيد، و ثالثة تقدم بها إلى الكتاب، ضمنها وصايا مختلفة لهم. (شوقي ضيف، ١٩٧٧م: ١١٥) يُعرّفهم فيها بآداب ديوان الرسائل، ويحثّهم على التسامح والتعاون فيما بينهم عند الحاجة. ويبدو أن عبد الحميد، من خلال كتابة هذه الرسالة، سعى إلى تأسيس ما يشبه **نقابة** للكُتّاب. كل رسالة من رسائل عبد الحميد العظيمة تُشبه كتابا مستقلا، إذ تناول فيها مواضيع لم يلتفت إليها العرب قبله.

تتميز رسائل عبد الحميد بخصائص فريدة. من هذه الخصائص التفصيل والإسهاب والإطناب في الكلام. بالطبع، سبقه من أسهبوا في الإطناب والتفصيل في رسائلهم، لكن هذه السمة تبرز بوضوح وجلاء عنده دون غيره. ومن خصائص رسائل عبد الحميد الأخرى التناغم المنطقي فيها. ففي رسائله، ولا سيما الرسائل الرسمية، كان المؤلف يبدأ بمقدمة تتناسب مع مقتضى الحال، ثم ينتقل إلى الموضوع الرئيسي ويختتمه بأسباب وبراهين دامغة. وبعد الانتهاء من الموضوع، كان يختم الرسالة في أسفلها للدلالة على نهايتها. وقد جمع كل هذه المراحل بطريقة تُضفي عليها ترابطا منطقيا قويا. عبّر عبد الحميد عن أفكاره في فقرات، على الرغم من أن لكل فقرة منها مضمونها الخاص، إلا أنها في الوقت نفسه مترابطة منطقيا تماما مع الفقرات التي تسبقها وتليها. لا يوجد في كلامه أي قلق، بل هدوء تام، مستخدما أسلوبا لطيفا في التعبير، ومخاطبا المستمع، ليُوصل إليه أي معنى يريده.

عبد الله بن المقفع

يُعدّ روزبه (ابن نديم: ١٧٢) بن دادويه الشهير، المعروف بعبد الله بن المقفع، جسراً عظيماً بين اللغتين الفارسية والعربية، إذ ترك أثرا بالغا في العربية من خلال ترجماته المذهلة من اللغة البهلوية إليها. وُلد ابن مقفع، وهو فارسي الأصل، حوالي عام ١٠٦ هـ في قرية تُدعى **جور** (الجهشياري: ١٠٩)

فيروزآباد حاليا، وقد أشرق نجمه اللامع في سماء العلم والأدب. كان ابن المقفع، كغيره من أفراد عائلته، زرادشتيا، وقضى بعض الوقت في بلاد فارس يتلقى تعليمه الأساسي ويبحث في الثقافة والأدب الإيرانيين، ثم انتقل إلى البصرة، التي كانت آنذاك من أهم مراكز العلم والأدب، وملتقى للكتاب والشعراء والعلماء. في البصرة، انضم إلى صفوف موالي آل أهتم، وهي عائلة اشتهرت بفصاحتها وبلاغتها وبيانها، واختلط بالعرب. وإلى جانب الثقافة والأدب الفارسيين اللذين ورثهما عن عائلته، أتقن الثقافة والأدب العربيين. وفي ريعان شبابه، ذاع صيته ككاتب بفضل حكمته ومعرفته وبراعته الأدبية، ما دفع الحكام والولاة إلى التنافس على دعوته لتولي شؤون ديواناتهم، التي كانت آنذاك من مسؤولية الموالي في الغالب.

بدأ ابن المقفع مسيرته الكتابية في سن العشرين في الدولة الأموية. عمل أولا كاتبا لعمر بن هبيرة في ديوان كرمان. ثم، عندما كان عبد الحميد بن يحيى كاتبا لمروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، في الشام، قبل منصب كاتب يزيد بن عمر بن هبيرة، والي العراق نيابة عن مروان، ثم أصبح كاتبا لأخيه داود بن هبيرة. مع أن ابن المقفع عاش حياة رغيدة هانئة خلال تلك الفترة، وتمتع بمكانة ووجاهة خاصتين، إلا أن حظه لم يبلغ ذروته إلا بعد الثورة العباسية، حين انضم إلى عيسى بن علي، حاكم الأهواز وعم الخليفتين العباسيين الصفاح والمنصور، فإلى جانب قبوله منصب الكتابة، أسلم أيضا. ومنذ ذلك الحين، عُرف باسم عبد الله، و لقب بأبي محمد. و يقال إنه حين حاول إعلان إسلامه سأله عيسى أن يؤجل إلى الغد حتى يكون ذلك في حفل يحضره القواد و الرؤساء، ثم حضر العشاء فجلس يأكل و يزمزم على عادة المجوس، فقال له عيسى أتصنع ذلك و أنت على عزم الإسلام؟! فقال أكره أن أبيت على غير دين! (شوقي ضيف، ١٩٧٧م: ١٣٥).

عاش ابن المقفع حياة هانئة مع عيسى بن علي لسنوات عديدة حتى قُتل في البصرة عام ١٤٢ هـ على يد سفيان بن معاوية، والي البصرة، بتكليف من منصور. ويختلف المؤرخون والكتاب في سبب مقتله. فمنهم من يرى أن السبب هو اتهامه بالزندقة، ومنهم من يرى أن السبب هو تأليفه كتاب **كليلة ودمنة** الذي كتبه بلغة الحيوانات سخرية من المنصور العباسي وتنديدا به. ويرى الجهشياري و كثير من المؤرخين أن السبب هو أن ابن المقفع أعدّ كتابة أمان لعبد الله بن علي، عم منصور، ليختمها منصور. ويقولون إن ابن المقفع دافع عن عبد الله بن علي في هذه الرسالة بقوة جعلت منصور يرى أن جميع السبل مسدودة أمامه لنقض وعده. كان من بين بنود الأمان هذا أنه إذا خالف منصور أيا من شروطه، فلا بيعة له في رقاب المسلمين و لا عهد و لا ذمة، و نساؤه طوالق و عبيده أحرار. فغضب المنصور حين قرأ الأمان و سأل عن كاتبه فقيل له: ابن المقفع، فقال: أما أحد يكفينيه؟ و كتب إلى سفيان بن معاوية، و تصادف أن يضطغن عليه، فاستغل الفرصة و طلبه فلما قدم عليه أمر بتنور فسجر، ثم أخذ يقطعه عضوا عضوا و يرمي به في التنور. (الجهشياري: ١٠٣)

لم يمضِ ابن مقفع من حياته سوى عشر سنوات في العصر العباسي، أما الباقي فكان في العصر الأموي. خلال تلك الأيام، رأى بوضوح الظلم الذي كان يرتكب بحق الإيرانيين، ولذلك، امتلأ قلبه كراهية. ولما تولى العباسيون الحكم، انضم إليهم مع غيره من الموالين لهم، رغم أنه لم يكن معهم في قرارة نفسه، وذلك لمصلحته. لم يكن ابن المقفع من أنصار العباسيين ولا من محبي العرب، ولكنه كان سياسيا من أنصار العلويين، وكان ذا ميول إيرانية قوية، إلا أنه اضطر، لمصلحة الدولة، إلى التظاهر بصداقة العباسيين. كان ابن المقفع مثالا للكمال في الأخلاق والعقل والمعرفة، وكان خطيبا مفوها. كان رجلا نبيلا عطوفا على المحتاجين، صادقا في صداقاته، حريصا على الوفاء والإحسان. كان شغوفا بإصلاح شؤون الدولة والشعب، ورأى في الكفاءة والدقة أساسا للنجاح في كل ما يقوم به. وبفضل سعة علمه، جمع ثروة من المعارف العلمية والأدبية، فمزج بين الثقافة الإيرانية والعربية واليونانية والهندية. كان شديد التعلق بعرقه الإيراني، وسعى إلى إحيائه بنشر السياسة والتاريخ والعادات المختلفة لهذا الشعب. أدرك عيوب الأنظمة الاجتماعية في عصره، وحاول إصلاحها بنشرها على نطاق واسع، و استطاع أخيرا أن ينشر العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية والسياسية الإيرانية في المجتمع العباسي، متسترا بالتقوى ومتظاهرا بالصداقة مع العباسيين.

ورغم أن ابن المقفع غادر الحياة شابا، فقد ترك وراءه مؤلفات قيّمة في شتى المجالات، كالتاريخ والفلسفة والأدب والسياسة والعلوم الاجتماعية، وغيرها، تشهد جميعها على مكانته العلمية والأدبية المرموقة. ومن أهم هذه المؤلفات: **الأدب الصغير**، و**الأدب الكبير**، و**رسالة الصحابة**، وكتاب **كليلة ودمنة**.

الأدب الصغير كتاب صغير ألّفه ابن المقفع في الحكمة والأخلاق وحسن الخلق. وهو عبارة عن مجموعة من الأقوال القصيرة لابن المقفع في شتى المجالات التي مرّ بها في حياته، والتي أراد من خلالها إيصال هذه الاكتشافات القيّمة إلى القراء لتكون لهم نبراسا يهتدون به. وقد ذكر ابن المقفع نفسه في مقدمة الكتاب المذكور أن الغاية من تأليفه هي تعليم الصواب في التفكير، وصقل بصيرة الناس، وإحياء أفكارهم، وإرشادهم

وتدريبهم على الفضائل الأخلاقية. وقد دفع تنوّع المواضيع في هذا الكتاب، وتداخل بعض تركيباته وجمله من جهة، والاقتباسات الواردة فيه من جهة أخرى، بعض النقاد والخبراء إلى اعتبار الكتاب برمّته، أو أجزاء منه على الأقل، ترجمة وتجميعا، لا تأليفا أصيلا.

كتاب الأدب الكبير، وهو أضخم حجما من كتاب الأدب الصغير، مؤلف من فصلين. يتناول الفصل الأول الحاكم والعلاقة المتبادلة بينه وبين الشعب. وقد أورد فيه ابن المقفع أقوالا وتجارب قيّمة من أسلافه، وقسّم نصائحه للسلطان إلى قسمين. في القسم الخاص بالسلطان نفسه، ينصحه ابن المقفع بالتواصل مع الشعب، وعدم تقصير ساعات عمله، وزيادة ساعات راحته ونومه وترفيهه، وعدم الانبهار بمديح الآخرين وإعجابهم، وعدم القيام بأي شيء يُنقص من هيبته وجلاله. أما في القسم الآخر، الذي يتناول علاقة السلطان برعيته، فيدعوه إلى معرفة أحوال الشعب والاستفسار عنها، وعدم التسرع في مكافأتهم أو معاقبتهم، وغير ذلك من الأمور. ينصح ابن المقفع أيضا بتجنب التملق والتزلف للسلطان، والتسامح معه، وطاعته طاعة تامة إلا في الأمور التي تخالف الدين والعقل والفروسية والشرف ونحو ذلك. ويتناول الفصل الثاني من كتاب الأدب الكبير موضوع الصداقة وحسن التعامل بين الأصدقاء. ويرى ابن المقفع، الذي جمع في هذا الفصل أقوالا قيّمة للحكماء حول حسن معاملة الناس لبعضهم، أن الصديق مرآة أمينة، ومؤتمن على الأسرار، وسند حقيقي، لا يُوثق به إلا في الحياة، ولا يبوح له إلا بالأسرار. ولذلك، يعتبر اختيار الصديق مهمة بالغة الصعوبة تتطلب عناية فائقة ووقتا طويلا.

ترك ابن المقفع عدة رسائل في السياسة الإدارية، والأخوة، والمواساة، والتهنئة، وغيرها، وأهمها وأشهرها رسالة بعنوان رسالة الصحابة. كتب ابن مقفع هذه الرسالة لأبي جعفر المنصور، خليفة الدولة العباسية، وناقش فيها قضايا هامة كأوضاع الجيش المختلفة، ولا سيما جيش خراسان، وسوء حال أهل العراق، وخاصة البصرة، في العصر الأموي، وضرورة منحهم الثقة والاهتمام في الحكومة الجديدة، والحذر من التشدد مع أهل الشام، واضطراب النظام القضائي في الدولة الوليدة، ومسائل الجزية، وأخيرا وضع رجال الحاشية وأقارب الخليفة. هذه الرسالة، التي مزج فيها ابن المقفع بين النقد والثناء على الخليفة، هي في حقيقتها نقد لنظام الدولة العباسية وسبل إصلاحه استنادا إلى مؤسسات الدولة الإيرانية.

إذا تجاوزنا الأدب الصغير والأدب الكبير وكتب ابن المقفع ورسائله الأخرى، نصل إلى كتابه القيّم والمؤثر كليلة ودمنة، الذي يعود إليه معظم شهرته، والذي مدين له النثر العربي بأكمله. هذا الكتاب الثمين عبارة عن مجموعة من القصص والحكايات الجميلة والعذبة بلغة الحيوانات في مجال التعاليم الأخلاقية، ومعظمها موجه إلى الملوك والقادة. يختلف العلماء والنقاد فيما إذا كان كتاب كليلة ودمنة ترجمة لابن المقفع أم من تأليفه. يرى بعض هؤلاء العلماء أن الكلمات التي استهلت هذا الكتاب، وإن كانت من ابن المقفع نفسه، إلا أنه ترجمه من الفارسية إلى العربية. بينما يرى فريق آخر من العلماء أن كليلة ودمنة من تأليف ابن المقفع نفسه، وأنه لم يكن موجودا في الماضي على صورته الحالية. ويستندون في رأيهم إلى وجود آيات قرآنية وأحاديث نبوية، فضلا عن ذم الأبقار فيه. وقد ذكر الفريق المذكور سببين رئيسيين لتأليف ابن المقفع لهذا الكتاب، مع نسبته إلى غيره ووصفه بالترجمة لا بالتأليف: أولهما، أنه في ذلك الوقت، أي في بداية العصر العباسي، كان العرب يتعرفون تدريجيا على ثقافات العالم المتقدمة،

كالثقافات الإيرانية والهندية واليونانية، من خلال ترجمة مختلف الأعمال. لذا، ازدهر سوق الترجمة، وكان الناس يميلون عموما إلى الكتب المترجمة من لغات وثقافات أخرى أكثر من ميلهم إلى الأعمال المكتوبة بلغتهم وثقافتهم. ثانيا، كتب ابن المقفع هذا الكتاب تحديا لأبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي، فلجأ إلى نسبه إلى غيره تجنبا لغضبه، وحماية لنفسه من تبعات محتواه القاسي والناقد. وهناك رأي ثالث في هذا الشأن يجمع بين وجهتي النظر السابقتين، إذ يعتقد أن قصص كليلة ودمنة الأصلية كانت موجودة في الأدب الفارسي والهندي القديم، لكن ابن المقفع أدخل عليها تغييرات جوهرية، ثم عبّر عن معانيها الإرشادية بلغة بليغة ملائمة للثقافة العربية الإسلامية، وذلك بحذف بعض المواد وإضافة أخرى. اليوم، أثبتت أبحاث جديدة وموسعة أجراها باحثون، إلى حد ما، وجهة نظر هذه المجموعة الثالثة، وهي أن القصص الأصلية لمعظم القصص الواردة في كتاب كليلة ودمنة كانت باللغة السنسكريتية – اللغة القديمة لشعوب الهند – ثم تُرجمت إلى اللغة البهلوية. جمع ابن المقفع هذه القصص ثم ترجمها إلى العربية، مُدخلا عليها تغييرات جوهرية تتناسب مع الثقافة الإسلامية العربية، بما في ذلك حذف وإضافات ضرورية مثل فصل برزوية الطبيب وفصل ملك الفئران ووزرائه، واستخدمها للتعبير عن مقاصده.

يُعدّ كتاب كليلة ودمنة شرحا مُفصّلا، أولا، لواجبات الحاكم تجاه رعيته، وثانيا، لواجبات الشعب تجاه بعضهم بعضا. في الحالة الأولى، يُشير هذا الكتاب إلى ضرورة إلمام الحاكم بمختلف الأمور، وتحلّيه بالصبر والحكمة. وعند غضبه، عليه أن يكون مُتأنيا وذا نظرة ثاقبة، وأن يحترم وعوده واتفاقياته ويفي بها، وأن يُقدم الخير والإحسان في الوقت والمكان المناسبين، وأن يتحلى بحسن الخلق في السياسة الداخلية، وأن يسعى لاختيار أصدقاء أوفياء، وأن يُحافظ على أصدقاء جديرين بالثقة، وأن يُعامل مرؤوسيه بالعدل، وألا يُجبر أحدا منهم على فعل ما يُخالف إرادته، وأن يكون مُدركا لأخلاق وسلوك وكلائه، وأن تكون مكافآته وعقوباته مُتناسبة مع أعمالهم، وأن يُفضّل التفكير المنطقي والحلول على التهور، لأن الأفعال لا تُتخذ بالتهور بل بالعقل والرأي، وأن الدهاء ينتصر على التهور، وألا يُهمل التشاور في مختلف الأمور، وأن يكون كتوما في السياسة، وأن يُفضّل السلام على الحرب. و في الحالة الثانية، يُقدّم الكتاب المذكور العلاقات الودية بين الناس كإحدى ضرورات الحياة، ويرى أنه لا سعادة في الدنيا تُضاهي صحبة الصديق. ويقترح شروطا خاصة للصداقة، ويعتبر ثلاثة أمور مصدرا لاستقرارها وقوتها، وهي: تناول الطعام معا، وزيارة الأصدقاء في بيوتهم، والتعرّف على عائلاتهم والمحيطين بهم. أما في كتاب كليلة ودمنة، الذي يعتبر من علامات الصداقة أن يكون المرء صديقا لصديقه وعدوا لعدوه، فقد أُعطيت الصداقة أهمية بالغة لدرجة أن الخيانة والخداع فيها يُعتبران كفرا.

يُعد ابن المقفع من رواد الكتابة في العصر العباسي، ومن مؤسسي النثر العربي الفني، وهو نثر، بفضل جهوده، دخل بعد ديوان الرسائل، مجال الترجمة أيضا. على غرار عبد الحميد الكاتب، أدخل ابن المقفع عناصر الفن والجمال إلى النثر العربي، فجعله مهيأ لاستقبال مواضيع متنوعة وتطويرها. استقى هذا الكاتب الإيراني أسلوبه من فصاحة اللغة العربية الأصيلة وبلاغتها، ومزجها بالروح الإيرانية واليونانية والهندية، فنتج عن ذلك أسلوب جديد يجمع بين الإيجاز العربي، والإطناب الإيراني، والمنطق اليوناني، والحكمة الهندية. في أسلوبه، تتكامل بلاغة البداوة التي استقاها من آل أهتم مع رقة اللغة الإيرانية، والطابع العلمي اليوناني، وفخامة اللغة الهندية. ابن المقفع مفكر يطغى فكره على أسلوبه الكتابي، فالفكر هو المحرك الأساسي لأسلوبه، ولذا فهو لا يميل إلى الفنون اللفظية، أو الأساليب البلاغية، أو الأساليب التعبيرية، ولا يستخدمها إلا عند الضرورة. يميل مؤلفنا إلى الجمال الروحي أكثر من الجمال اللفظي، لذا فهو لا يولي اهتماما كبيرا للتناغم والتوازن، على عكس عبد الحميد الكاتب. صحيح أن بعض التناغم والتوازن يظهران في بعض كتاباته، لكنهما نادران. يُعد أسلوب ابن المقفع في الكتابة، ببلاغته وسلاسة أسلوبه وجماله، رمزا للكتابة القديمة، وقد وُصف بالأسلوب السهل الممتنع، بمعنى أن تأليف أعمال مثل أعمال ابن المقفع يبدو سهلا للوهلة الأولى، ولكنه في الواقع مستحيل.

خاتمة البحث

لم يستطع النثر العربي في الجاهلية، ثم في بدايات الإسلام، رغم ما شهده من تطور، أن يخرج من مساره الطبيعي الذي اقتصر على البساطة والعبارات القصيرة المتفرقة، إلا في نهاية العصر الأموي. وابتداء من القرن الثاني، وبفضل دور الإيرانيين الذين جمعوا بين ثقافات متعددة، شهد النثر العربي تحولات جوهرية، ليصبح مختلفا عما كان عليه قبل ذلك. حرر عبد الحميد و ابن المقفع اللغة العربية من قيود القافية والسجع، فأصبحت العربية لغة مرنة نابضة بالحياة، قادرة على استيعاب الثقافة الإيرانية التي كانت تُترجم إليها بغزارة، و استيعاب العلوم اليونانية والسريانية. فحلّت المعاني الحيوية للمدينة، المفعمة بالنكهة الإيرانية، محلّ المعاني الثقيلة والغريبة والمتكررة للصحراء. لم تعد اللغة العربية مجرد وسيلة لفهم القبائل العربية أو التعبير عن المفاهيم الدينية والعلمية، بل أصبحت هي نفسها تجسيدا للفن والمشاعر النبيلة. اتخذ أسلوب الكتابة طابعا من الإطالة والتمطيط، واتخذ شكلا أرستقراطيا فارسيا. وحلّ التفصيل والإطناب محلّ الإيجاز، واكتسبت الجمل تناغما وإيقاعا منتظما، وتفاوتت جمل الكلام كموجة تصعد من بحر هادئ، وبرزت بنية معتدلة بعيدة عن الإيجاز والإطناب. وهكذا، نشأت أول مدرسة للنثر العربي المفصّل، وكان عبد الحميد وابن المقفع من روّادها.

إستخدم الكتّاب الإيرانيون، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب و ابن المقفع، اللغة العربية في الكتابة عن مواضيع جديدة، مما أدى إلى إدخال معان وأفكار جديدة في اللغة العربية. لم تقتصر حداثة كتاباتهم الرسمية في الشؤون السياسية والإدارية على اللغة العربية فحسب، بل شملت أيضا كتاباتهم في المواضيع الأدبية والأخلاقية. يُعدّ أسلوب المرسل في النثر العربي أحد المجالات التي برز فيها الإيرانيون في النثر العربي خلال القرنين الثاني. يُعدّ ابن المقفع أعظم كاتب إيراني خاض غمار هذا المجال، إذ استطاع أن يُرسّخ هذا النمط من النثر في الأدب العربي. والأسلوب المرسل أو الحرّ في النثر العربي هو أسلوب يُوظّف فيه الكاتب الكلمات والعبارات وفقا لمعانيها، مُعبّرا عنها ببساطة وعفوية.

المصادر و المراجع

١. آذرنوش، آذرتاش. (١٣٩٩ش). **چالشهای میان فارسی و عربی سده های نخست**. چاپ پنجم، تهران: نشر نی.

٢. إبن خلكان، شمس الدين أحمد، **وفيات الأعيان**، القاهرة، ١٢٧٥ق.

٣. ابوالفضل، احمد بن أبي طاهر، **المنثور و المنظوم**.

٤. الإصطخري، ابراهيم بن محمد. (١٨٨٩م). **المسالك و الممالك**، طبعة ليدن.

٥. الأندلسي، ابن عبد ربّه. (٢٠٠٩.م). **العقد الفريد**. بيروت: دار صادر.

٦. الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس.(١٩٢٦م) **الوزراء و الكتاب**. وين.

٧. حسين، طه. (٢٠١٢م). **من حديث الشعر و النثر**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة.

٨. حديدى، حسين. (١٣٨٦ش). **خدمات ايرانيان به زبان و ادبيات عرب**. بمبئى: انتشارات پروين.

٩. ضيف، شوقي. (١٩٧٧م). **الفن و مذاهبه في النثر العربي**. الطبعة الثامنة، القاهرة: دار المعارف.

١٠. محمدى، محمد. (١٣٧٤ش). **فرهنگ ايرانى پيش از اسلام و آثار آن در تمدن اسلامى و ادبيات عربى**. چاپ چهارم، تهران: انتشارات توس.

التنظيرات و النقد فی الأدب العربي
السنة الثالثة، العدد ١١، خريف ١٤٠٢
صص: ١١٤-١٠١

مقاله پژوهشی
DOI: ١٠,٢٢٠٣٤/JRAL. ٢٠٢٦,٥٧٣٧٤٤,١١٠١

نقش آفرینی ایرانیان در نثر عربی قرن دوم هجری

مرتضی قدیمی [١]

(تاریخ ارسال: ۱۴۰۴.۱۱.۱۴ ، تاریخ پذیرش:۱۴۰۴.۰۲.۲۱)

چکیده

ایرانیان از دیرباز نقش برجسته‌ای در رشد و توسعه زبان عربی به طور کلی و ادبیات آن به طور خاص ایفا کرده‌اند. از جمله مظاهر این نقش، تلاش‌ها و دستاوردهای نویسندگان ایرانی در قرن دوم هجری، مانند عبدالحمید کاتب و عبدالله بن مقفع، در پیدایش و رشد نثر عربی است. این مقاله کوششی است هر چند ناچیز، برای برجسته کردن این تلاش‌ها و دستاوردهای ارزشمند. پژوهش در دست، نشان می‌دهد که نویسندگان ایرانی این دوره، به رهبری عبدالحمید کاتب و عبدالله بن مقفع، زبان عربی را از محدودیت‌های قافیه و سجع رها کرده و آن را به زبانی انعطاف‌پذیر تبدیل کردند که توانست علاوه بر علوم یونانی و سریانی، فرهنگ ایرانی را که به طور گسترده به آن ترجمه می‌شد، بپذیرد و در خود هضم نماید. با تلاش این نویسندگان، معانی زیبای شهری، که با رنگ و بوی ایرانی آغشته شده بود، جایگزین معانی سنگین، بیگانه و تکراری بیابان شد. زبان عربی دیگر تنها وسیله‌ای برای درک قبایل عرب یا بیان مفاهیم مذهبی و علمی نبود بلکه این زبان به تجسمی از هنر و احساسات والا تبدیل شد. اطناب و تفصیل جای ایجاز را در نثر گرفت و جملات هماهنگی و ریتم منظمی به خود گرفتند. جریان کلام مانند موجی که از دریایی آرام برمی‌خیزد، متغیر بود و ساختاری متعادل پدید آمد که از ایجاز و اطناب به دور بود. بدین ترتیب اولین مکتب نثر مفصل عربی پدید آمد که عبدالحمید و ابن مقفع از پیشگامان آن بودند. نویسندگان ایرانی موضوعات و معانی تازه ای را در زبان عربی وارد کردند. سبک مرسل در نثر عربی یکی از دستاوردهای ایرانیان در نثر عربی در قرن دوم است. ابن مقفع بزرگترین نویسنده ایرانی محسوب می‌شود که در این زمینه قدم گذاشته است، زیرا موفق شد این سبک نثر را در ادبیات عربی تثبیت کند.

کلیدواژگان: نثر عربی، نثر فنی، عبدالحمید الکاتب، عبدالله بن مقفع، نقش آفرینی ایرانیان در نثر عربی.

---

١. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی، دانشکده علوم انسانی، دانشگاه کوثر بجنورد، بجنورد- ایران، ایمیل: morteza.ghadimi@kub.ac.ir